"الازدواجيّة اللّسانيّة الموسيقيّة، استراتيجيّة تربويّة لتنشئة التلامذة في "بيت الموسيقى" في النجدة الشعبيّة اللبنانيّة"

هيّاف ياسين (مدير عام بيت الموسيقى)

منى زريق (ممثّلة لبنان في المجمع العربيّ للموسيقى)

ضمن المحور الثاني : الأغنية العربية المعاصرة ... مصادر موسيقية متنوعة

١. مقدّمة:

"بيت الموسيقى" هو مدرسة موسيقيّة في جمعيّة النّجدة الشّعبيّة اللّبنانيّة، مختصّة بتعليم "التقليد الموسيقيّ المشرقيّ العربيّ الشّعبيّ والفنّيّ" (أيّ الموسيقى الكلاسيكيّة العربيّة بالإضافة إلى التّراث الموسيقيّ الشّعبيّ اللّبنانيّ\الشّاميّ) وأيضًا تعليم "الموسيقى الكلاسيكيّة الأوروبيّة"، مع بعض الأنماط الموسيقيّة الفنيّة الحديثة.

تمّ إنشاؤه في العام ٢٠٠٨ بقرار من الهيئة الإداريّة في الجمعيّة؛ وقد أشرف على تأسيسه **الدّكتور هيّاف ياسين**، الّذي كان وما زال يشغل منصب مديره العام.

١. الأقسام:

أقسام "**بيت الموسيقى**" الأساسيّة ثلاثة وهي:

أوّلًا: قسم التّوعية الموسيقيّة: وهو يَضمّ الأطفال من عمر ٤ سنوات إلى ٨ سنوات، في غرفتهم الخاصّة ذات التّجهيز التّربويّ، مع برنامجهم التّعليميّ التّربويّ الخاصّ، وبإشراف أساتذة مختصّين. والهدف الأساسيّ يكمن في تنمية وصقل وتوجيه تلك الملكات الموسيقيّة الموجودة عند هؤلاء الأطفال، ورفع مستوى ثقافتهم الموسيقيّة حتّى يتمكنّوا من اختيار صحيح لآلاتهم الموسيقيّة بعد فترة وجيزة.

ثانيًا: القسم الموسيقيّ المشرقيّ العربيّ: وهو يُعنى بتدريس أصول موسيقى النّهضة العربيّة، مع التّراث الموسيقيّ الشّعبيّ المحليّ اللّبنانيّ\الشّاميّ، على مختلف الآلات الموسيقيّة التالية: **القانون - السّنطور - العود - البزق - الكَمَنْجَة - النّايّ - الغناء العربيّ الأصيل - الرّقّ - الدّربكة – المَزْهَر...** بالإضافة إلى المواد النّظريّة.

ثالثًا: قسم الموسيقى الغربيّة الأوروبيّة: وهو يُعنى بتدريس الموسيقى الكلاسيكيّة الأوروبيّة على آلات **البيانو والغيتار والكمان**، مع استحداث لبعض الآلات النّفخيّة **كالساكسوفون والترومبيت والكلارينيت**، وأيضًا آلة **الغيتار الباص (Bass Guitar)** لأنماط موسيقيّة عصريّة، بالإضافة إلى المواد النّظريّة.

٢. واقع التربية الموسيقيّة في لبنان:

لقد انتشرت في الآونة الأخيرة، ظواهر عديدة في لبنان تُعنى بالتعليم الموسيقيّ، سواء في القطاع الخاصّ المتنوّع أو في القطاع الرسميّ الحكوميّ، حيث تجسّدت هذه الظواهر في مدارس ومؤسّسات تعليميّة تهتمّ بنقل المعرفة والمهارة الموسيقيّة إلى تلميذ الموسيقى منذ نعومة أظافره.

لا شكّ أنّ هذه الظواهر هي صحّية في المبدأ، ولكن يبقى سؤال مهمّ يُطرح في هذا الزمن، زمن العولمة الشرسة، التي تذيب مختلف التقاليد الموسيقيّة في العالم في كَنَفِها، والسؤال هو:

"أيّ تربية موسيقيّة نريد تنشئة الأجيال عليها؟" ولماذا بطبيعة الحال؟

للإجابة عن هذا السؤال بطريقة مقنعة، نحتاج إلى أوّلًا إلى الحصول على تعريف دقيق أو مقاربة واضحة تبرز ماهيّة الموسيقى من جهة أولى، كما نحتاج ثانيًا إلى إبراز حاجاتنا الثقافيّة والاجتماعيّة المرتبطة بظروف هذا الزمن من جهة ثانية.

لذا، وبعيدًا عن الاستفاضة المعروفة في تعريفات الموسيقى، والتي نتوافق عليها جميعنا دون الحاجة إلى تبريرها أو ذكرها، نودّ إلى الإشارة بالتحديد إلى مقاربة الموسيقى على أساس أنّها لغة.

٣. الموسيقى لغة:

وتأتي اللّغة هنا بمعنى الكفاية البشريّة الكليّة الموجودة لدى كلّ البشر، أيّ أنّ هذه الأنشطة (عزف و\أو غناء و\أو تلحين و\أو تمييز وإدراك النغم إلخ...) هي عبارة عن قدرة بشريّة كامنة موجودة لدى كلّ البشر (مع الأخذ بعين الاعتبار بالتفاوت الكبير في استعداداتهم)، ولكنّها تحتاج إلى إطار مجتمعيّ ثقافيّ حتّى تتحقّق فيه؛ أسوة باللّغة الكلاميّة، التي لا يمكن للطّفل أن يتعلّم نطقها بداية، وصولًا إلى كتابتها وتأليف النصوص الجديدة فيها، إلّا إذا توفّرت له بيئة اجتماعيّة ناطقة لهذه اللّغة أو بالأحرى هذا اللّسان (أيّا كان هذا اللّسان).

ما نودّ تأكيده هنا، أنّ الموسيقى لغة، وتتحقّق هذه اللّغة على شاكلة ألسن موسيقيّة أسوة بالألسن اللّغويّة في بيئاتها الاجتماعيّة الثقافيّة، وبالتالي، كما نجد هناك لسان أدبيّ عربيّ ولسان آخر أدبيّ إنكليزيّ، يمكننا التفكير أنّ هناك تعدّديّة ألسنيّة موسيقيّة، فهناك مثلًا اللّسان الموسيقيّ المقاميّ وهناك لسان موسيقيّ طونياليّ، ولسان موسيقيّ خُماسيّ إلخ...

نسمع مثالًا لطفل من مدرسة "بيت الموسيقى" في النجدة الشعبيّة اللّبنانيّة مبنيًّا على اللسان المقاميّ، وهو عبارة عن عزف على آلة السنطور لموشّح أحنّ شوقًا من مقام الراست:

https://www.youtube.com/watch?v=7TmoQR3QytM

كما نسمع مثالًا آخر لطفل آخر من "بيت الموسيقى"، مبنيًّا على اللسان الطونالي، عزف على آلة البيانو.

https://www.youtube.com/watch?v=W1DelXxmEnE

إذًا، لكلّ لسان موسيقيّ، خصائصه "اللّغويّة" من صرف ونحو، وآلات وقوالب، وجماليّات أداء.

هذا ما يأخذنا إلى القسم الثاني من التساؤل وهو: أيّ موسيقى نريد أن نعلّمها لأبنائنا ولماذا؟

٤.أولويّة الموسيقى المقاميّة المحليّة:

في المبدأ، فقد أثبتت كلّ دراسات علوم التربية الموسيقيّة، ومعها العلوم الاجتماعيّة، أنّ هناك حاجّة ماسّة لتعليم الطفل، منذ نعومة أظافره، لغته الموسيقيّة الأمّ (أسوة بتعلّمه لغته الأدبيّة الأمّ)، ومن ثمّ الانفتاح تدريجيًّا على الثقافات المحيطة، وبعدها القيام بتثاقف متنوّع مع العالم أجمع.

إنّ هذا التوصيف السليم والصحيح في عالم التربية، يقودنا إلى التفكير في لبنان إلى ضرورة بناء مسار تعليميّ موسيقيّة يبدأ أوّلًا:

(١) بتعلّم الموسيقى التراثيّة الشعبيّة اللّبنانيّة\الشاميّة،

(٢) ثمّ الانتقال إلى تعلّم الموسيقى العربيّة لا سيّما موسيقى النهضة العربيّة،

(٣) وأخيرًا الانفتاح على العالم أجمع، وتعلّم موسيقى من أفريقيا، ومن شرق آسيا، ومن دول أوروبا وأميركا...

٥.روافد الموسيقى الشعبيّة:

وبالتالي، كان لا بدّ من أن توظّف الروافد الموسيقيّة الشعبيّة في التراث الموسيقيّ المحليّ اللّبنانيّ\الشّاميّ، لإثراء المناهج التعليميّة الموسيقيّة، لا سيّما في السنين الأولى. لذا أصرّ "بيت الموسيقى" على إدراج القوالب الموسيقيّة الشعبيّة المعروفة كالميجانا والعتابا والدلعونا وغيرها، بنصوص تربويّة مناسبة لحياة الأطفال وبتسجيل عصريّ حيّ مع أصوات أطفال

لتكون القابليّة أكبر لدى الأطفال أثناء العمليّة التربويّة. ولهذه الغاية نعطي مثالًا: كتاب "أنا والميجانا" المعتمد.

https://hayaf.com/2023/12/15/ana-wel-mijana/

ونسمع منه مثال **"مرمر زماني"** من مقام السيكاه:

https://www.youtube.com/watch?v=qF0Y-QSUkrM&list=OLAK5uy_mTpQcjS1dRwZBOAfadhkCzPjOuokOlcrM&index=3

بعد إنجاز الطالب لسنين محدّدة يتعرّف عليها على التراث الموسيقيّ الشعبيّ الوطنيّ، ينتقل إلى رافد جديد وهو الأهمّ، يعزّز له المعرفة والمهارات في اللّسان الموسيقيّ المقاميّ، ألا وهو دراسة موسيقى النهضة العربيّة بين سنتيّ ١٧٩٨-١٩٣٩ إنطلاقًا من مصر. وهنا يبدأ الطالب بالتعرّف على عالم الوصلة المقاميّة، فيتعلّم عزفًا السماعيّات والبشارف والدواليب والتقاسيم والتحميلات والرقصات، ويتعلّم غناءً الموشّحات والأدوار والقصائد والمواويل.

نسمع مثالًا عزفيًّا وهو "سماعي ثقيل سوزنك راست لطاطيوس أفندي"

https://www.youtube.com/watch?v=4z10aqQYCE0

كما نسمع مثالًا غنائيًّا لموشّح "يا غصين البان" من مقام الحجاز

https://www.youtube.com/watch?v=-vFV9kJBrIo

كما مثالًا غنائيًّا فرديًّا وهو موّال مصريّ بعنوان "اللّيل أهو طال" من مقام راست الكردان

https://www.youtube.com/watch?v=QGKnbz1-Ots

مثال عزفيّ فرديّ "دولاب من مقام الراست"

https://www.youtube.com/watch?v=ErdQXvYehMU

مثال عزف جماعيّ لسماعي ثقيل بيّاتي المنسوب إلى إبراهيم المصريّ

https://www.youtube.com/watch?v=ML-QHodQbK8

٦. خاتمة:

وبهذا، يكون "**بيت الموسيقى**" في جمعيّة النجدة الشعبيّة اللّبنانيّة قد تبنّى استراتيجيّة الازدواجيّة اللّسانيّة من جهة أولى، وركّز على التشرّب من المنابع الموسيقيّة المحليّة لا سيّما التراثيّة منها خصوصًا في المرحلة التعليميّة الأولى من جهة ثانية، واعتمد سياسة الانفتاح على العالم الكبير من خلال تجذير اللّسان الموسيقيّ المقاميّ أولًا ثمّ التعرّف على اللّسان الموسيقيّ الطونالي من جهة ثالثة، وكلّ ذلك في إطار منهجيّ علميّ وأكاديميّ وتربويّ صحيح.

شكرًا لكم.